المدينة العربية الإسلامية بين الحاضر وتحديات المستقبل: المدينة العتيقة بقسنطينة أنموذجا

صالح شـاوي

قسم الهندسة المعمارية، كلية علوم الأرض، جامعة باجي مختار – عنابة، chaouisalah2007@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2016/09/26 **تاريخ المراجعة:** 2018/10/09 **تاريخ القبول:** 2018/12/03

ملخص

تتناول الورقة البحثية بالدراسة المدينة العتيقة بقسنطينة، للوقوف على عناصر وأشكال التراث المبني للمدينة العربية الإسلامية من خلال شواهد ومبانٍ تاريخية عكست مستوى القدرات الإبداعية التي ينطوي عليها هذا التراث تقنيا، وتنظيما وتخطيطا بأبعاده الدينية والثقافية، وكذا مدى التفاعل القائم بين النشاطات الإنسانية المختلفة للحفاظ على معالمه بغية نقلها للأجيال الصاعدة، وحيث تعرف المدينة تدهورا مستمرا لإطارها المبني ونوعية الحياة الحضرية فيها جراء العوامل الطبيعية وفعل الإنسان. فماهي مميزات المدينة العتيقة؟ وكيف يمكن حماية وتأصيل خصوصياتها في إطار التنمية المستدامة؟ هل يمكن مصالحة الماضي العمراني بحاضره لاستشراف مستقبله؟

الكلمات المفاتيح: مدينة عربية إسلامية، حفاظ، تنمية مستدامة، قسنطينة.

The Arab - Islamic city between the present and the future challenges: Case of the ancient city of Constantine

Abstract

This paper treats the ancient city of Constantine to identify the elements and forms of built heritage in Arab-Muslim city through historical monuments and constructions reflecting the creative abilities of the technical, organizational, and cultural dimensions, to bequeath to future generations. The city is experiencing a regression of the built environment and the quality of urban life, due to natural and human factors. What are the characteristics of the ancient city? How can we protect it in the context of sustainable development? Can we conciliate the past with the present to explore the future?

Key words: Arab - islamic city, protection, sustainable development, Constantine.

La ville arabo musulmane entre le présent et les défis du futur : Cas de la vieille ville de Constantine

Résumé

Cet article traite de la vieille ville de Constantine pour identifier les éléments et les formes du patrimoine bâti dans la ville arabo - musulmane à travers des monuments et ouvrages historiques reflétant les capacités créatives sur le plan technique et organisationnel, ainsi que ses dimensions culturelles, en vue de le léguer aux générations futures. La ville connaît une régression du cadre bâti et de la qualité de la vie, dues aux facteurs humains et naturels. Quelles sont donc les caractéristiques de la vielle ville? Peut - on la protéger dans le cadre du développement durable? Peut - on concilier le passé avec le présent pour explorer l'avenir?

Mots - clés: Ville islamique arabe, protection, développement durable, Constantine.

المؤلف المرسِل: صالح شاوي، chaouisalah2007@yahoo.fr

- مقدّمة:

ورد في بطون كتب التراث والوثائق التي تداولت مجال التعمير والعمران، أنه ومنذ أن ظهر الإنسان (هذا الكائن البدائي) على وجه المعمورة، بالرغم من أنه لم يكن أعظم الكائنات الحية قوة ولكنه كان بدون شك أكثرها مهارة وأشدها دهاء، عمل جاهدا على توظيف عناصر الطبيعة والمجال وفق إمكاناته البسيطة لتلبية حاجاته اليومية وتأمين حياته وتوفير راحته وأمنه خارج أو داخل إطارات مبنية اختلفت أشكالها، وأحجامها وموادها، من مغاور، وكهوف وأكواخ. تعاون هذا الكائن مع أقرانه لرد الأخطار المتربصة به إلى أن ظهرت الكتل البشرية والتجمعات العمرانية، دخلت على إثرها في صراعات دائبة ودامية في سبيل السيطرة على موارد العيش، ومناطق الصيد والغابات المثمرة[1]. وكان لتلك التجمعات أنماط عيش لكل منها خصائصها، شكلت في مجملها تراثا توارثه الجيل بعد الجيل. وليس التراث ما مضى وانتهى ولكنه ما تبقى، حيث يتألف مما يصطفيه المجتمع ليمنحه الخلود بعيدا عن تأثيرات الزمن ثم تحويله تباعا للأجيال الصاعدة. إن التراث العمراني المادي ملمح رمزي يعكس تنوع التراث الثقافي وثرائه وهو وثيق الصلة بالذاكرة والهوية، كما يعرفه آخرون كونه الجسر الذي يصل الماضي بالحاضر نحو آفاق المستقبل ويربط أواصر التواصل بين أجيال المحطات الثلاث. إن إنتاج التراث المعماري يعود إلى إشراك عدة عوامل متعلق أو متكامل بعضها بالبعض الآخر (اجتماعية، واقتصادية، وثقافية وسياسية).

حرص العمران العربي الإسلامي كتراث مادي إلى غاية القرن التاسع عشر على تناسقه وتوازنه من خلال التركيز على عاملي الإنسان والحيز الذي يتحرك وينشط فيه. فكان قائما على أحكام وأعراف الاستعمال بما يضمن الاستمرارية لثقافة مبنية على العلاقة بين التنظيم الفضائي والتنظيم الاجتماعي. لم يول الاهتمام بقضية الحفاظ على التراث المبني إلا في غضون القرن السابق، وهذا لا يمنع من القول إنه خلال القرون العابرة لم يكن هناك اهتمام بالموضوع ذاته، وعليه فإن بداية القرن الواحد والعشرين كانت بداية لطريقة ونظرة جدية وجديدة للماضي القريب والبعيد، فيها اهتمام بالشواهد التاريخية وكذا طرح إشكالية "الحفاظ". فهناك من يرى ضرورة تعمير المعلم وآخر يرى وجوب الدفاع عن شرعية المعلم دون تدخل أو تعديل فيه، ولكن ابتداء من سنة 1880 أخذت المحافظة على الأملاك الثقافية نصا قانونا صريحا في إيطاليا وإدخال عنصر الرفع والتمتير إلى جانب مادة التاريخ كونه شاهدا وعرضا موضوعيا وملموسا لحقائق الماضي كأساس علمي لكل دراسة معمارية.

1- المدن الإسلامية القديمة:

1-1- المدينة، نشأتها وتخطيطها:

أعطيت للمدينة La ville العديد من التعاريف، أولها اللغوي الذي يرجع كلمة 'مدينة' أصلا إلى كلمة 'دين' ، أي أنها ذات أصل 'سامي'. وعرفت المدينة عند الآكدي ، والآشوري، بالدين أي 'القانون'. أما اصطلاحا: فقد تعددت تعاريف العلماء والمؤرخين بتعدد الأمكنة وتغير الأزمنة، حيث اعتبر أرسطو أن المدينة مجموعة من الذكريات الصخرية الممكن إدراك معانيها ومكوناتها. فالمدينة هي مكان تعيش عليه مجموعات حضريّة بتعداد سكاني كبير، إذ يختلف تعريف المدينة من مكان لآخر ومن وجهة نظر لأخرى، وكل منطقة تضع شروطا على المنطقة الحضرية، تعتمد على استغلال أراضيها في مشاريع مختلفة. ويعتقد بعض المنظرين أن المدينة تشكلت بعد الثورة النيوليتية للزراعة؛ حيث إن ظهور الزراعة أجبر الصيادين على التخلي عن أنماط الحياة البدوية، والمحاولة للوصول لتسوية مع المزارعين. أما ابن خلدون فيرى: "أن المدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير

وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج إلى اجتماع الأيادي وكثرة التعاون. فلا بد في تمصير واختطاط المدن من الدولة"[2].

كما حاول ايدالو تلخيص آراء بعض المتخصصين الذين ناقشوا أمر المدينة فيقول: "المدينة موجودة بالفعل، وهي الإطار الذي تمارس فيه الوظيفة الاجتماعية (الثقافة، القيم، حماية الفرد) وهي العنصر الوظيفي للنظام الاقتصادي والإطار الذي تمارس فيه البرجوازية المنسجمة سلطتها وهي كيان يستمد وحدته من الممارسة اليومية لسوق العمل" (بوجو قارنيي. ج، 989). وتعتبر المدينة بالنسبة للمغرب مثلا، وحدة حضرية شاسعة ذات كثافة سكانية عالية التي تتمركز فيها معظم الأنشطة البشرية وهي مجال لبنيات تحتية أساسية ومجال أيضا للترفيه والابتكار والعيش الكريم..الخ وفي التشريع المغربي يستعمل قليلا مصطلح "مدينة" والمستعمل حاليا هو "الجماعة الحضرية".

بدا واضحا من خلال الوثائق التي عثر عليها في ميدان تخطيط المدن وإنشائها على غرار حي القصبة بالجزائر ومدينة عمان بالأردن، كما أكدت الدراسات التحليلية والتطبيقية لما تبقى من آثار على جوانب الفكر الإسلامي وأسسه ومراحل تطوره الحضري. حيث تناسب هذا الفكر مع النظرة الإنسانية التي تكيفت معه في سلاسة ويسر وتدرج, وهذب من طبائع النفس البشرية وارتقى بها عاليا. وقد امتاز الفكر الإسلامي العربي بالشمولية في مبادئه العامة الصالحة لكل مكان وزمان وبالتخصيصية في جزئيات التطبيق الميداني أي أنه يبدأ بالأهم كسياسة عامة وينتهي إلى التخصيص الدقيق في كل الفروع كانعكاس. يتمتع مئات الآلاف من السكان في كل من مدن فاس، وتلمسان، والقاهرة وبغداد وغيرها بظروف معيشية مناسبة رغم المناخ الحار الجاف الذي يغطي هذه المدن، ذلك بفضل إدراك وفهم أساليب وطرق تكييف المعيشة مع معطيات المحيط. وبالرغم من تشابه المعطيات المناخية، تبرز أشكال معمارية مختلفة تتميز بأساليب بسيطة نحصرها في وجود صحن الدار (الشكل الأكثر نموذجية)، في الصحاري توجد القصور، هناك الحصون والمعاقل، هناك أنظمة التهوئة الطبيعية في شكل أبراج هوائية، وسماكة الجدار الخارجي، بالإضافة إلى استعمال المواد المحلية في البناء matériaux locaux[3].

ورغم بساطة البناءات فهي أثبتت عبر العصور فعاليتها ونجاعتها حيث تسمح بتوفير ظروف حياتية أفضل للراحة داخل المنازل حتى لما تكون درجة الحرارة مرتفعة. وتشترك المدن العربية الإسلامية في مجملها حول التعبير المجالي لمبادئ الشريعة الإسلامية، إذ يتشكل الحي الإسلامي من مجموعة متدرجة حول قطب المسجد الذي يعطي للحي طابعه وشخصيته. كما كانت الشريعة هي التي تحدد بدقة الحياة الاجتماعية للفرد والجماعة والتي انجر عنها السكن بشكله المعروف[4]. ولذلك يطلق أيضا على المدن الإسلامية "دار الإسلام" هذا يعني أن لا يوجد لدى المسلمين مفهوم "أطراف" هناك دائما "داخل" ولكل فرد إقليمه داخل الحيز السكني أو خارجه (مبدأ متفق عليه روحيا واجتماعيا). ومن ثم تتجلى الأهمية البالغة التي تكتسيها دراسة المدن الإسلامية العربية في الأمصار لدراسة التراث العربي الإسلامي لأن كثيرا من الجوانب الأثرية والعمرانية يتأكد فهم كنهها بصورة خاصة في ضوء هذه المصادر التي كانت عنصر الاتصال الأساسي الذي عن طريقه تنقل الأجيال السابقة ثقافتها وخبراتها للأجيال اللاحقة.

2-1- مميزات المدينة الإسلامية:

نشأت المدينة الإسلامية بيثرب (مدينة النبي) بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها انطلاقا من مكة المكرمة، الواحة التي آوى اليها آخر المرسلين أين أسست مبادئ التعمير المملاة عن الدين الجديد. وأين تهيأ المجتمع

آنذاك الى حياة حضرية جديدة متجددة، باستقرار الرحل وترك النعرات القبلية عن طريق عرى التآخي(المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار) والتكافل الاجتماعي في الإسلام ورابطة ذوي الارحام بل بتوحيد الكل تحت راية الإسلام. هذا وقد عرفت الحضارة الإسلامية مراحل غنية في الميدان العمراني والمعماري حيث تنفرد تلك المدن بالقاسم المشترك وهو الإسلام، الذي شهد توسعا ما بين منتصف القرن السابع والتاسع للميلاد بظهور أولى المدن الإسلامية المعروفة تباعا على غرار مدينتي البصرة سنة 633 والكوفة سنة 638 بالعراق، والفسطاط سنة 640 بمصر والقيروان سنة 670 بتونس[5] ثم بغداد سنة 762 عاصمة العراق، وفاس سنة 789 بالمغرب، ووهران سنة 903 بالجزائر.

تتميز المدن الإسلامية في الجزائر كانت أو عبر ربوع العالم العربي الشاسع بخصائص متشابهة في أنسجتها العمرانية وتكويناتها المعمارية بالرغم من اختلاف مواقعها الجغرافية ومعطياتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ومن أهم مميزات المدينة الإسلامية؛ المسارات العضوية المتشعبة والمتدرجة، الفناء الداخلي، الأحياء (وفق تنوع ديمغرافي، مجموعات عرقية، دينية ومسلمة). أما السوق souk فهو ما يميز المدينة الإسلامية بامتياز عن أي مدينة أخرى في أي عصر كسوق عكاظ فهذه الخاصية بالذات ترتب في طليعة المميزات. إن مرد ملامح التشابه الأصلية بين المدن الإسلامية في وجود الجامع (المسجد)، والساحة، والسوق والفناء الداخلي يعود في الأساس إلى مبادئ وثوابت مشتركة نابعة من أحادية المصدر والمصير، لا تتغير بتغير المنظر وتعدد الشكل المعبر. المصدر هو القرآن، والسنة، والفقه والشريعة السمحاء والتي تعرف وتحدد بدقة الحياة الاجتماعية والعائلية التي ينجم عنها المسكن (ملكية فردية) الذي ينتمي بدوره إلى الجماعة la collectivité أو الحي la cité والذي لا يمكن أن ينشأ في غياب عنصر ومصدر كل حياة 'الماء' على غرار مدينة سامراء بالعراق المنشأة على طول نهر على مسافة 25كلم[6]. فمعظم المدن الإسلامية عرفت توسعا عضويا ابتداء من المركز متفرعة وغير منتظمة الطرقات تنتهي في الغالب إلى ممر ثالثي الذي بدوره يؤول إلى المسد l'impasse من جهة أخرى فهي محاطة بجدران للأمن والحماية وتوحيد صف المجتمع[7].

3-1 خصائص البناء المعماري الإسلامي L'architecture musulmane:

لقد أكد العلماء والفلاسفة على ضرورة تكييف النمط الإنساني مع النمط المعماري، من جهة أخرى، ألح عالم الاجتماع على تحديد حجم قياسي للمدينة بغية تحقيق الرفاه الاجتماعي. أما أرسطو Aristote فقد أكد بالمقابل على وضع حد للتوسع المعماري ومنه فإن العلاقة بين مقياس الإنسان والبيئة هو العنصر المميز للمدينة العربية. وبالرغم من البحوث المستمرة حول التراث المعماري العربي الإسلامي le patrimoine arabo-musulmane ومزاياه فإننا نلاحظ في الوقت الراهن، بناءات ومنشآت تهمل مقياس الإنسان. إزاء ظهور سكنات فاخرة على جنبات الأنهج الكبيرة وهي معرضة لشتى أشكال التلوث البيئي المنبعث من السيارات والآلات على تعدد أشكالها، وألوانها وأحجامها، أحبط وأقلق الإنسان العربي وأفقده الأمل في مناخ المدينة العربية الإسلامية بشوارعها الهادئة والمؤمنة. ونحن نتناول بالبحث البناء العربي الإسلامي، يتعين إعادة دراسة شكله ونمطه، فتلك البناية لا تتكون من قبة وقوس فحسب بل هي حيز 'بيئي إنساني' يضمن العلاقات الاجتماعية المتبادلة ويسعى إلى تحقيق الرفاهية لا للفرد فحسب بل وللجماعة في كل الأوقات وعلى جميع المستويات. وعليه يتعين على المهندس المعماري المهتم أو المنكب على دراسة التراث المعماري تجاوز الظاهر منه والذهاب إلى العلاقة الوطيدة بين الشكل والعمق السوسيو اقتصادي، فلقد ثبت بأن البناية الإسلامية ترتبط ارتباطا وثيقا بالعادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية[8].

2- الفن المعمار والتعمير في المدينة الإسلامية:

2-1-ما مدى تأثير الإسلام فيها؟

مع بزوغ شمس الدين الإسلامي الحنيف، ظهر واضحا تجسيد أفكاره النيرة وتعاليمه الخيرة في فن، عمارة وتخطيط المدينة الذي يعرف كونه عملية تحديد وتعريف أفضل طريقة لتحقيق أهداف معينة، ثم اختيارها وفقا لاعتبارات معينة في ظل الموارد المحدودة والقيود التي تفرضها الظروف السائدة في المجتمع، أو أنه عملية ضبط البيئة الطبيعية والبشرية من أجل استخدام أفضل للموارد البيئية، وبالتالي فإن هناك محاولات كثيرة للتخطيط منها التخطيط الاقتصادي والتخطيط الاجتماعي والتخطيط العمراني. وقد اعتمد تخطيط المدينة الإسلامية بالذات على عدة مراحل؛ اختيار الموقع، توفر الماء، واعتدال المكان وجودة الهواء والمكان الآمن. إذ يخضع تخطيط الموضع الذي سينتشر عليه البنيان وفق شروط ثمانية أقامها ابن الربيع: "يسوق إليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف، وأن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق, وأن يبني فيها جامعا للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع أهلها, وأن يقدر أسواقها لينال أهلها حوائجهم عن قرب، وأن يميز بين قبائل ساكنيها بألا يجمع أضدادا مختلفة متباينة، وإن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه محيطين به من سائر جهاتها وأن يحيطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة، وأن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها"[(9)].

كما تجسد هذا التخطيط من خلال عدة عناصر لعل أهمها التوحيد ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ اللَّهُ الصَّمَدُ ٢ ﴾ [سورة الإخلاص:1،2]، الذي تجلى أساسا في:

- توحيد مخططات المساجد حيث تشترك في انفتاحها على السماء (المأذنة) le minaret وتوجيهها نحو القبلة، إذ شكل المسجد حافظا للوحدة وعنصرا مركزيا واستراتيجيا تنسج حوله خيوط حياة المدينة كما لعب دور الجامع، والمدرسة والجامعة (جامعة الزيتونة بتونس، جامعة القرويين بفاس) عبر التاريخ كما أن المدرسة والزاوية موجودتان في جل بل كل المدن الإسلامية استجابة للآية الكريمة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ﴾ [سورة العلق:1،2] كينابيع فياضه للإشعاع الإسلامي العلمي وتكريسا للعلاقة بين الإسلام والعلم 'اطلبوا العلم ولو في الصين"،" العلم نور والجهل ظلام"، ولأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؛
- توحيد وتشابه بعض المناظر الحضرية les paysages urbains داخل المدينة الواحدة؛
- توحيد التوجه إلى القبلة في كثير من العبادات؛
- وحدة اللغة المعمارية والفنية؛
- غياب التمثيل والتجسيم البشري؛
- منع كل رسومات أو تمثيل للإله والرسل؛
- منع الشرك بالله كاستعمال الواسطة بين العبد وخالقه.

كما يدعو الإسلام إلى التواضع، والتضامن والمساواة بين الأفراد والجماعات وعدم التكبر ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٨ ﴾ [سورة الإسراء رقم 17، 37-38][(10)]، لهذا ما نلمسه في احترام مقياس الإنسان échelle humaine عبر أرجاء المدينة وفي تشييد وأفقية البناءات (الطابق الأرضي والعلوي) وإنجاز الطرقات (الطول،العرض) والارتفاعات منها المفتوح على السماء ومنها المغطى تكيفا مع معطيات وخصوصية المناخ، ومن خلال البساطة والغنى في البناء من جهتي الداخل

والخارج. وفيما يخص نظام المحارم والحرمة التي تحث عليها تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حثا، فإننا نجدها متجسدة من جانب في اختيار الموضع الآمن أو تشييد وإحاطة المدينة بأسوار وقلوع وما تشتمل عليه من أبراج المراقبة والمحارس من أهم وسائل التحصين والتأمين للحكام والمحكومين، المتبعة في الحصون داخل المدن التي حتمت طبيعة موضعها وجود هذه التكوينات الحربية. ومن جانب آخر تدرج المسالك وتنظيمها إلى غاية فضاء السقيفة ثم الفصل بين الفضاء العمومي والخاص وحجم الفتوحات المطلة على الخارج وارتفاعها وحتى في تصميم فضاءات الدار بالإضافة الى صيانة المرأة وإعطائها مجالا من الحرية بتخصيص لها فضاء المشربية حيث ترى منه الشارع دون أن ترى لعدم تعريضها للنظرات الطفيلية المثيرة للفتن[11].

خص الله جل وعلا الأرض بميزة عظيمة وهي وجود الماء في البحار والأنهار والمحيطات وفي باطن الأرض وجعله الله أساس الحياة من جانب، كما حرم الله تبذيره وتلويثه من جانب آخر. إذ ذكر الماء في القرآن الكريم في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 30] حيث أنشئت المدن الإسلامية بجوار ينابيع المياه إلى غاية نقطة الماء وسط الفناء الداخلي للمساكن، ذلك لأنه عنصر مقدس وباعث بامتياز لأسباب الحياة على الأرض وملطف للجو وفي ذات الوقت مدمر صعب التحكم فيه. هذا وقد حضت تعاليم الإسلام الحنيف على حسن المعاملة والتآزر والتسامح والتعايش فيما بين المسلمين وغيرهم من بني البشر على اختلاف دياناتهم وأعراقهم ولنا في معاملة المسلمين فيما بينهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10] وفي دبلوماسية آخر المرسلين وخاتم النبيئين محمد صلى الله عليه وسلم في الصبر ومعاملة جاره اليهودي المسيء إليه أبلغ إسوة وأحسن قدوة ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت، 46][12]، ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: 34]. كما نهى من جهة، عن الزينة والتنميق التمثيليين داخل البنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا تشد فئات المجتمع المسلم بعضها بعضا وشجع من جهة أخرى، على النماذج والأشكال المعمارية المنبثقة من القناعات الدينية[13]، ابتداء من السقيفة وهي مدخل غير مباشر لحماية حرمة الدار. كما تلعب السقيفة أيضا دور الفضاء الفاصل بين الخارج والداخل

كما أن الإسلام يحارب التيه والظلم بمختلف أشكاله وأحواله لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، فالملاحظ في البناءات محدودية ارتفاعها بما تقتضيه البيئة ويفرضه النظام الاجتماعي، فلحسن المجاورة لا يحق للجار من جهة القبلة او الغرب أن يرفع جداره عن مستوى جاره إلا بإذنه تفاديا لحرمانه من حقه في عنصر الإنارة والاستمتاع بالنظر وبأشعة الشمس الصحية. إذ لم تكن العلاقة بين المباني علاقة جامدة، بل دخلت أيضا في تحديد سلوك الساكنين للعقارات، وضرورة احترامهم الآداب العامة، وكان من حق الجيران إجبارهم على ذلك سواء عن تضامن أهل الحي ضد المخالفين من سكانها أو عن طريق القضاء. وأن من سبق في البناء يحوز العديد من المزايا التي يجب على جاره الذي يأتي بعده أن يحترمها، وأن يأخذها في اعتباره عند بناء مسكنه، وبذلك يصيغ المنزل الأسبق المنزل اللاحق. أما عن المبادئ المتبعة في تخطيط المدينة فهي تحدد درجات الخصوصية في الأماكن العامة وتحدد أماكن وضع المباني المعينة، فالمباني التي قد تضر الناس كالمصانع والدباغة والأفران والتي تؤدي إلى قلق، وإزعاج وإصدار الضجة كانت تبنى في أماكن بعيدة عن الأحياء والخطط السكنية.

2-2- اليوم، نحو أي تعمير وأي عمران للمدن الإسلامية القديمة؟

لقد أثبت الواقع تهميش المدينة العربية الإسلامية، فلم يبق من مزاياها سوى الأهمية المعمارية لمعالمها وقصورها ومقاومة واستمرار بعض مرافقها ونشاطاتها (السوق، البازار والحرف). من جهة أخرى أدى بقاء بعض الهياكل الثقافية والدينية إلى إيلاء الجمعيات المحلية، والوطنية والعالمية الاهتمام بالمدينة القديمة والدور الذي يمكن أن تلعبه في المدينة العصرية خاصة في المجال السياحي وما يدره من عملة صعبة ومناصب شغل دائمة ومؤقتة بالإضافة إلى التكامل والتعايش معها للوفاء بحاجات الفرد المتعددة، المتطورة والمتزايدة في إطار مبادئ التنمية المستدامة Développement Durable الهادفة في مضمونها إلى تحقيق توازن بين الأنظمة الثلاث: البيولوجية، والاقتصادية والاجتماعية من خلال الدعوة للاستغلال العقلاني للموارد الطبيعية خاصة غير المتجددة منها، دعوة ضمنية لاستعمال المواد المتجددة تفاديا لأشكال الاستنزاف والتبذير لأن الله لا يحب المبذرين وذلك للحفاظ على نصيب الأجيال القادمة من هذه الموارد وهو ما يتماشى مع التوجه العالمي نحو المحافظة على التراث بنوعيه المادي واللامادي.

3- العمران الإسلامي في الجزائر:

تقع بلدان إفريقيا الشمالية وبلدان الشرق الأوسط في مناطق حارة وجافة. تتميز هذه المناطق بدرجة حرارة مرتفعة في النهار ومنخفضة في الليل ورطوبة نسبية منخفضة، وكذا كمية تساقط ضعيفة وإشعاع تشميس مكثف. إن الموقع الجيو استراتيجي الذي تتمتع به الجزائر جعلها متعددة الثقافات (الأمازيغية، العروبة) ومهدا للتبادل بين الحضارات ونظم وتقنيات البناء ما يشكل قيمة إضافية للإرث التراثي المادي الإسلامي، رغم تاريخ البلاد الحافل بالآلام أحيانا، وبالآمال أحيانا أخرى. منذ الغزو الروماني إلى فترة الاستقلال، أرست الجزائر ثروة من التراث المعماري يستحق المحافظة عليه للأجيال القادمة، ومن ثم ضرورة تطوير الثقافة التراثية لدى أفراد المجتمع. فالملاحظ أن الأحياء المستحدثة مؤخرا لم تعتد بالطابع الأصيل الجوهر إلا في المظهر الخارجي أحيانا وهذا راجع، في تقديرنا، إلى تأثر المواطنين بالتيار الحضاري كغيرهم من أبناء العصر.

إن الجزائر كأكبر دولة أفريقية من حيث المساحة، عرفت أنماطا معمارية وعمرانية مختلفة بحسب المنطقة والمناخ. بعد الحقبة الاستعمارية الأوروبية التوسعية، وجد التراث العمراني الإسلامي بالجزائر نفسه مهددا في الشكل والمضمون، ومعنيا بنماذج لإنتاج صناعي آت من الغرب الذي أصبح شيئا فشيئا معنى للتقدم وخلق تعارضا بين القديم والجديد وما أصطحبه أيضا من تحولات اقتصادية واجتماعية وبروز أنماط جديدة وعديدة للنقل والتنقل والهياكل التي تتطلبها. هذا ما أدى إلى إنشاء مؤسسة وعمران جديدين، حيث تشكل مع ذلك كله قطب معارض يعمل على محاربة عزل وتهميش المدينة العربية الإسلامية القديمة التي تسكنها فئات اجتماعية مختلفة وعموما عائلات فقيرة وميسورة الحال (شرخ اجتماعي).

4- لمحة موجزة عن مدينة قسنطينة:

قسنطينة، عاصمة الشرق الجزائري، عرفت خلال العشريات الأخيرة، نموا ديمغرافيا هائلا وتطورا عمرانيا سريعا. حيث أخذ التوسع العمراني بقسنطينة أربع اتجاهات رئيسية انطلاقا من نواة المدينة الأم، وكان هذا التوسع يخضع للتضاريس والعوائق الفيزيائية التي تميز المنطقة (شكل رقم 1)، كما كان متقطعا بفعل العوائق الطبيعية والقانونية حيث تم التوسع ذاته على ثلاث مراحل هامة يمكن حصرها فيما يلي:

ـ ما قبل الحقبة الاستعمارية: تميزت بالتوسع الداخلي والتكثيف والعلو على حساب الساحة المخصصة للبساتين ما يفسر انعدام المساحات الخضراء على سطح الصخرة.

ـ الحقبة الاستعمارية (1836-1962): تميزت المرحلة بتحويل القصبة قصر أحمد باي إلى ثكنة عسكرية وكنيسة وتقسيم المدينة إلى ثلاثة مجتمعات (مسلمة، يهودية وأوروبية) إلى جانب توسيع المحاور من اجل تحقيق أهداف عسكرية. مع ظهور بناءات موجهة للفئة المتواضعة الدخل وبناءات فاخرة موجهة للأوروبيين.

ـ المرحلة العصرية (1962-1970): تضمنت إنهاء المشاريع التي انطلقت سنة 1965 مع ظهور كتل عمرانية متصلة بالنواة (مناطق صناعية، حي بومرزوق، الجامعة، حي بو الصوف ومفارز اجتماعية) وصولا إلى إنشاء مدينة علي منجلي الجديدة وفق تخطيط عمراني عصري ما يزال قيد المراجعة والتحسين

5- المدينة العتيقة (القصبة) بقسنطينة: الوضع القائم

القصبة، مدينة داخل المدينة، تشكل علاقة بين الإنسان والعمل الفني الذي ينجزه بيده أو بأيدي مجموعة من الأفراد في أي لحظة من حياته أو في أي حقبة زمنية طويلة من عمر مجتمع وشاهد على الحضارة العربية الإسلامية. تقع المدينة العتيقة على أرضية صخرية صالحة للبناء، قابلة للتعمير تتصل بباقي أحياء المدينة الشمالية والجنوب شرقية والشمال شرقية عن طريق جسور وبالأحياء الجنوبية عن طريق أرضية "لابراش"، حيث تعاقبت عليها عدة حضارات، ما أهلها للحفاظ عبر العصور على دور "المركز الموجه". بالرغم من موقعها، وتاريخها ودورها، تعرف المدينة القديمة تدهورا مستمرا ولافتا لإطارها المبني على مستوى أحياء عديدة على غرار حي السويقة الذي تحول إلى فضاء عبور ومضاربة عقارية[14].

شكل رقم (01): نظرة علوية على المدينة العتيقة

المصدر: البطاقات البريدية.

1-5 تركيبة وتنظيم هيكلة المدينة القديمة:

تعتبر هيكلة المدينة القديمة بقسنطينة نموذجا للمدينة العربية الإسلامية، حيث يتميز بالأفقية ومخطط كثيف عضوي organique يعرض الحد الأدنى من المساحة لشمس الصيف وللرياح الباردة في الشتاء (شكل رقم 2). وببنايتها المتراصة والمتلاصقة التي تستمد الإنارة الطبيعية l'éclairage naturel عن طريق نوافذ (كوات) صغيرة والتي توفر بدورها التهوئة الطبيعية. كما تتميز بأزقة طويلة، ملتوية وضيقة مقارنة بالطرقات والأنهج المعاصرة. يميزها أيضا التدرج من محور رئيسي فثانوي إلى ثلاثي، وهي مظللة خلال معظم النهار بفعل نتوءات تشكلها غرف الطابق العلوي والممرات المغطاة. كما تتشكل المدينة وفق منطق يعكس تدرجا اجتماعيا معينا في صورة

منسقة ومدققة. كما نلاحظ من خلال نظرة علوية ثقوبا رباعية الشكل تتخلل البناءات (صحون الديار، وسط الديار). ما يخفف من كتلية النسيج من جهة، ويقلل من المساحة الأرضية المعرضة للشمس(شكل رقم 3). وتتميز القصبة كونها تفصل بين الحياة الخاصة والجماعية كما أنها تتلاءم ومناخ المنطقة مع استعمال المواد المحلية (الخشب، الحجر، العرعار)[15]. حيث تتكون المدينة أساسا من:

أ-**المركز:** يتميز بوجود مرافق (الجامع الكبير، الأسواق المجاورة) توصلنا إليها المحاور الرئيسية انطلاقا من أبواب المدينة الأربعة (باب الواد، باب الجبية، باب القنطرة، باب الجديد). فمركز المدينة centre de la medina ينفرد بكونه يتميز بالوظائف الدينية، والثقافية والاقتصادية على غرار المدن الإسلامية حيث لا يوجد تناقض بين الوظيفة التجارية والوظيفة الدينية بل بالعكس فتجاورهما يسهل أداء النسك الدينية والعبادة.

- المركز الديني: يتجسد في مبنى المسجد la mosquée بيت الله في الأرض والذي يمثل مركزا لعبادة الله تعالى وتعلم أمور الدنيا والدين، مكان نظيف لإقامة الصلاة (عماد الدين وثاني أركان الإسلام) ومكان للتجمع والتلاقي بامتياز لكل شرائح المجتمع ولتبادل الآراء والحديث ومتابعة الدروس دون تفضيل أو تهميش أو تمييز[16]. ففي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه:' ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه" رواه الإمام مسلم. فالمسجد أو الجامع هو قطب لا يحدد هوية المدينة فحسب بل ويمنحها شخصيتها[17].

- المركز الاقتصادي: يتواجد السوق بقلب المدينة ويشكل عنصرا أساسيا في تكوين المدينة الإسلامية مع وجود الفنادق والمحلات التجارية حول الساحة أو على جنبات المحاور الأساسية في سوق souk منظمة ومتخصصة في مهن معينة ومتدرجة من النشاطات الأنظف حول المسجد بوسط المدينة إلى الأكثر ضررا وإزعاجا نحو أطرافها، ابتداء من المكتبات، والعطارين، والجزارين، والنجارين، والحدادين إلى الدباغين هناك إلى حافة الصخرة لرمي الفضلات وبقايا نشاطات الإنسان المختلفة. ويتجمع أصحاب الحرف والتجار في شكل جمعيات حسب الاختصاص لتبادل وجهات النظر وتوحيد النصوص التي تحكم المهنة[18].

ب-الأحياء السكنية les quartiers résidentiels: يحث الإسلام على توحيد مكونات المجتمع، فخلف الساحة توجد أحياء تسكنها مختلف شرائح المجتمع وأحياء عرقية ودينية لأنه لا يمنع تواجد أهل الكتاب (يهود ومسيحيين) ويدعو المسلمين لحسن معاملتهم وجوارهم.

شكل رقم (02): مخطط عضوي للمدينة العتيقة بقسنطينة

المصدر: أرشيف ولاية قسنطينة.

جـ-الطرقات: وهي بمثابة شرايين المدينة حيث تمون الأحياء السكنية بطرقات ضيقة وملتوية، تتشعب إلى طرق أولية تصل المسجد بالضواحي وتصل بين الأحياء والمرافق الكبرى فثانوية منها ما هو مغطى – لتوفير عنصر الظل للمارة- تعمل بدورها على الربط بين الطرق الأولية والمرافق إلى غاية المسد impasse الذي يحس فيه الزائر أو العابر" بالغربة" حيث يمون مجموعة سكنية متقاربة النسب، وبذا فإن الطرقات تمون تدرجا اجتماعيا عمرانيا (شكل رقم 3).

2-5 خصائص السكن في المدينة العتيقة:

إن من مبادئ ديننا الحنيف الحفاظ على الحرمة intimité الفردية والعائلية حيث يتميز المسكن (الدار) بواجهات بسيطة وارتفاعات محدودة تحمي مستعمليها من النظرات الطفيلية الخارجية، فحياة المسكن تكون من الداخل، حيث إن للمسكن بابا باتجاه عموم القبلة (الجهة الشرقية) أو الغرب للاستفادة من أكبر قسط من الشمس صباحا أو مساء بما تسمح به الشبابيك المطلة على الفناء، كما أن الباب منخفض العلو ويمد على فضاء السقيفة الذي يمد بدوره على فناء داخلي مفتوح على السماء، تتموضع حوله مختلف فضاءات السكن الذي يتكون عموما من طابق أو طابقين. من جانب آخر، فإن المسكن هو مجال مقدس ومحرم ويخصص في تصميمه فضاءات لتحركات المرأة وممارستها لحرفة النسيج لتساهم في نفقات البيت لمساعدة الرجل الذي ينشط ويعمل خارج الدار، ذلك لأن الإسلام يهتم بالعمل ويقدسه وينبذ ضروب الكسل ومظاهر الاتكال والتسول، السكن أيضا، فضاء مغلق ومتدرج من الفضاء العمومي إلى الفضاء الخاص ثم إنه متعدد الوظائف وفق نظم ومعايير اجتماعية تكرس علاقة تعايش الرجل بالمرأة ؛ الداخل للمرأة والخارج للرجل (شكل رقم 4)[19]. ويتكون المسكن من العناصر الآتي ذكرها:

شكل رقم (03): مخطط يبين مورفولوجية قطاع سكني (باب الجبية) من المدينة العتيقة بقسنطينة

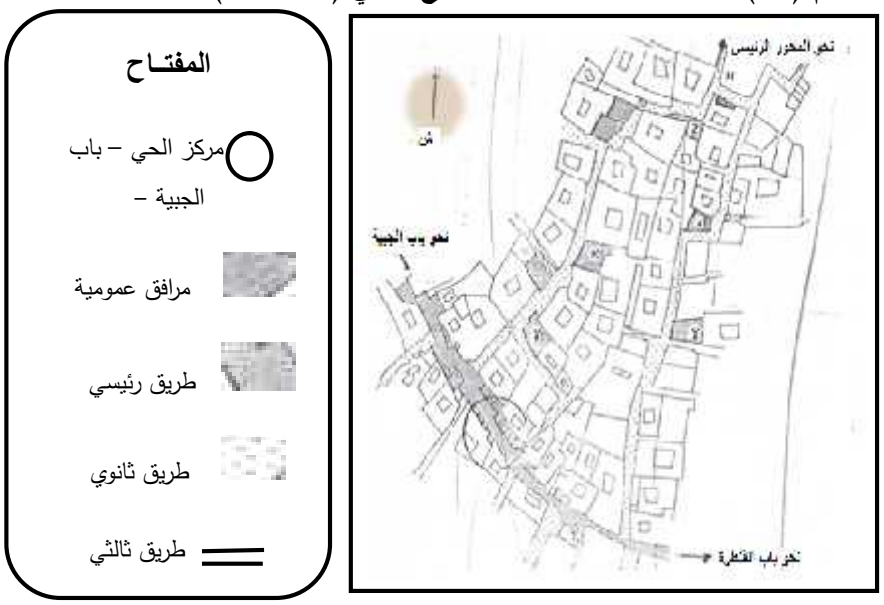

أ-**السقيفة squifa** : وهو مدخل غير مباشر en chicane لحماية حرمة المسكن من نظرات الأغراب، يتميز بنقص الإنارة. وفي المنازل الخاصة بالأثرياء قد تزود السقيفة ببيت مخصص للحارس وبنك من الأجور للانتظار، بالإضافة الى ذلك فإن السقيفة هو فضاء قبل الولوج إلى داخل المنزل.

ب–وسط (صحن) الدار patio: يميز الصحن المساكن التقليدية بالعالم الإسلامي فهو نموذجي وخاص بالمناخ الحار والجاف ويمكن أن نجده أيضا في المناطق المعتدلة. حيث إنه يتوسط المسكن ويشكل القلب النابض له وهو الفضاء الوحيد الذي تظهر منه الواجهات المزينة نسبيا، فضاء يشكل المفصل لمختلف الغرف وعناصر الدار الأخرى ويزودها بالإنارة الطبيعية والتهوئة (دور مناخي) والمكان الذي يجتمع فيه أفراد الأسرة ومجال لعب الأطفال أمام أعين أبائهم كما تمارس فيه كل النشاطات العائلية (المركز المتعدد الوظائف للنظام الاجتماعي) إضافة إلى وجود بئر أو صنبور ماء point d'eau أو شجرة مثمرة أو نخلة فالماء والنبات على قلته داخل المسكن يلعبان دورا مناخيا هاما يرتبط بالتهوئة l'aération أو ملقف للهواء كما يعملان على تعديل درجة الحرارة، بالإضافة إلى أن كل تلك العناصر تمثل رمزا من رموز الحياة[20](شكل رقم 4). فثمة تشابه بين موضع ومركزية ووظيفية الكعبة الشريفة ووسط (صحن) الدار حتى في شكلها التكعيبي (مربع، مستطيل او يشبه ذلك) وأن كلمة الدار مستوحاة من فعل دار، يدور وحيث أن الطواف بالكعبة ينشئ محور السماء ويولد لدى المسلمين اللحمة والطابع **العائلي** le caractère familial كما هو الشأن داخل المسكن أيضا.

شكل رقم (04): المخطط الأرضي لمسكن بوسط الدار يقع بشارع رواق السعيد بالمدينة القديمة

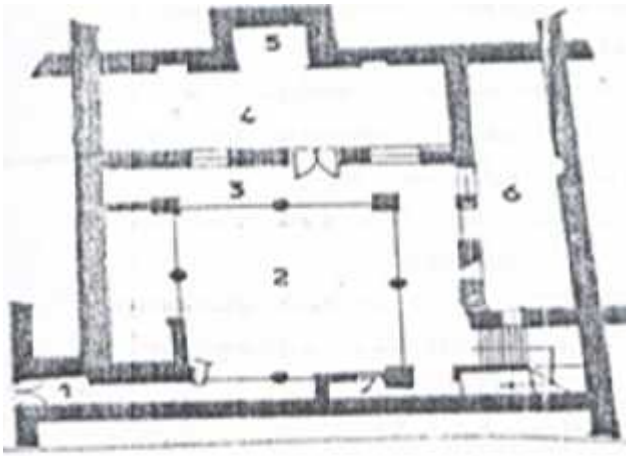

المفتـاح

1- السقيفة
2- وسط الدار
3- الرواق
4- المجلس
5- القبو
6- بيت

مقياس الرسم: 200:1

جـ-غرف (بيوت): ذات الشكل الطولي تتموضع حول وسط الدار، تضاء عن طريق باب أو نافذة وهي متعددة الوظائف

د-المجلس (بيت الضياف): تقع في الطابق الأرضي أكبر الغرف عرضا، لاستقبال الزوار، إذ يحتوي الحائط الداخلي المقابل للمدخل الـ"قبو" يستقبل مطرحا وحيدا لجلوس الضيوف على حافتي القبو توجد أدراج توضع عليها بعض الأشياء. هذا الفضاء يخرج في شكل نتوء.

هـ-السرايا: غرفة في الطابق العلوي بقبو يمتد بمقصورتين تستعملان للحاجة كغرفتين أو كمخزن، وفي عدم وجود مقصورتين نجد "الدكانة" التي تستعمل في الليل لتهيئة وطي الأثاث (مطارح، طاولات) وفي الليل كغرف للنوم تحت الدكانة يوجد قلب الدكانة لوضع وترتيب الأغراض وهو يطل على الطريق العمومي voie publique.

و- بيت الماء (بيت الراحة WC) والأدراج: يحتوي المسكن مهما كان حجمه على بيت راحة واحدة في زاوية من الطابق الأرضي، وفي الزاوية المقابلة نجد الأدراج لتجسيد العلاقة العمودية بين طوابق الدار.

ي- الفتحات Les ouvertures تتميز بصغر حجمها وقلة عددها المطلة منها على الخارج ذات شكل مستطيل أو ما أشبه ذلك، تطل في معظمها على وسط الدار لاستقطاب أشعة الشمس والإنارة الطبيعية[21]، من ضمنها المشربية المصنوعة من شبكة خشبية ولها نفس وظيفة النوافذ الأخرى وكونها متكيفة أكثر مع معطيات المناخ السائد فهي تسمح بالتهوئة الطبيعية القصوى الضرورية للراحة الحرارية le confort thermique، إذ يوجد هذا النوع من الفتحات في كل من القاهرة بمصر وجدة بالعربية السعودية وفي بلدان أخرى. وللمشربية نقاط إيجابية أخرى فهي تتيح للمرأة النظر في اتجاه واحد نحو الخارج دون أن يراها أحد من المارة (حيث إنها ترى ولا ترى) حفاظا على الحرمة التي تنص عليها تعاليم الإسلام(شكل رقم 5).

ن-الجدران murs: هناك نوعان من الجدران، خارجية سميكة (50سم ويصل حد 90سم) توفر حدا أدنى من الكسب الحراري صيفا وحدا أدنى من الضياع الحراري شتاء، لذلك يتم توجيه واجهات البناءات عموما نحو الجهة الشمالية والجنوبية وهناك جدران أخرى داخلية تفصل بين الفضاءات المشكلة للمسكن ذات سمك أقل.

3-5 عمران المدينة العتيقة: ارتباط بالماضي، صنع للحاضر واستشراف للمستقبل

يمثل عمران المدينة القديمة بقسنطينة شاهدا حيا على الحضارة العربية الإسلامية بطراز بناء مميز (شكل رقم 6)، وبما أن البناية هي الوحدة الأساسية للنسيج العمراني، إلا أنه يعرف على أيامنا تدهورا مستمرا لمعالمه، وهنا يتعين دراسة ما تبقى منه وتحليل التراث المعماري الإسلامي لاستنباط خصائصه وأشكاله الحالية والنظر في كيفية إعادة الاعتبار له وتأصيله وتحسين نوعية العيش والسكن بداخله في المستقبل (شكل رقم 7،8).

شكل رقم (05)،(06): العناصر المعمارية للمدينة العتيقة بقسنطينة التي تتلاءم وتتناغم في بساطتها والمعطيات المناخية الثقافية والاجتماعية للمنطقة، فلا يوجد طلاق بين الإطار المبني وحاجات السكان ونشاطاتهم ونموذج حياتهم اليومية.

المصدر: بطاقات بريدية قديمة على الموقع الإلكتروني

file:///C:/Users/pc/Desktop/Pr%C3%A9sentation%20de%20la%20Souika.html (15اوت 2016)

لم يكن للبناء العربي نمط محدد، غير أننا نلاحظ شواهد وعجائب معمارية تعكس قدرات ومواهب خلاقة تنطوي عليها الهندسة المعمارية الإسلامية، التي تعتبر كخزان علمي مرجعي ومنهل إلهام ودروس لأكبر المهندسين العالميين من طينة لوكوربيزي Le Corbusier وبويون Pouillon. فمواد البناء المستعملة لها علاقة بتقنيات تلك

الحقبة: كالأجور، والحجر والخشب بوصفها مواد رئيسية للبناء استعملت في جل السكنات العربية حيث العلاقة واضحة للعيان بين الثالوث: نمط البناء والمواد المستعملة والمناخ المحلي.

كل رقم (07)، (08): يظهر جليا ارتفاع السكنات، الفتحات، نتوءات الطابق العلوي، عرض الأزقة ومنظورها وكذا المقياس الإنساني للفضاءات

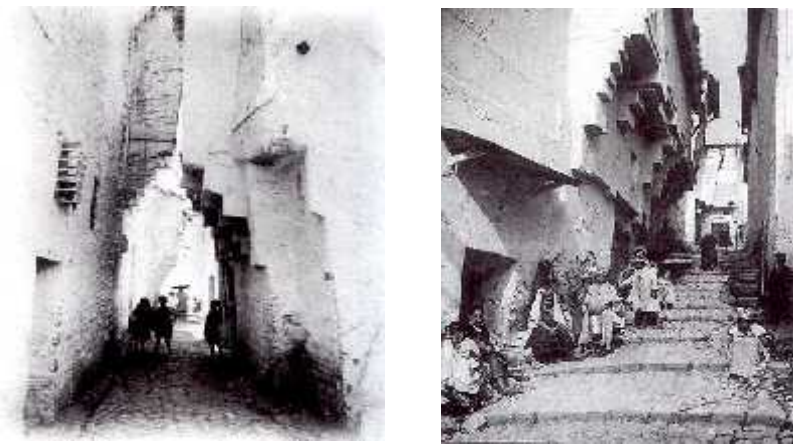

المصدر: بطاقات بريدية قديمة على الموقع

file:///C:/Users/pc/Desktop/Pr%C3%A9sentation%20de%20la%20Souika.html(15أوت 2016)

1-3-5 ماذا حدث الآن في ظل العولمة؟

إن تطور المجتمعات والأمم يتعلق بمدى سعة تقبلها للتغيرات الداخلية والخارجية المختلفة الآتية من الغرب، والمفروضة فرضا أحيانا. فإلى غاية القرن 18، بالرغم من الحيف الشديد الذي تعرض له، حافظ العالم العربي على كينونته وهويته إلا أنه خلال فترة المد الاستعماري شهد غزوا ثقافيا مدمرا، استهدف بشتى الطرق والوسائل طمس معالم الثقافة العربية الإسلامية تجسيدا لسياسة الإخضاع والإدماج، فظهرت إشكالية "الأنا والآخر" وظهر معها صراع بين الثنائية "العادات والعصرنة" فلم يدخر الاستعمار البغيض جهدا للتدخل في النسج العمرانية القديمة سواء بإخفائها، وتعديلها وحتى تهديمها. وبظهور الثورة الرقمية والإعلامية ابتداء من سنة 1990، استحالت المعمورة على رحابتها واتساع رقعتها إلى قرية صغيرة شهد فيها العالم سرعة انتقال صبيب الاتصالات والمعلومات وانتشارها بدون عائق الزمان ولا المكان بالإضافة إلى سقوط الأسوار وذوبان الحدود. وبالموازاة مع ذلك، برزت ثورة تكنولوجية عارمة أفرزت مواد وتقنيات جديدة ومتعددة أصلية ومقلدة. فأضحت بذلك العولمة ظاهرة فوقية على العالم العربي الإسلامي فكان لها التأثير البالغ والسريع في شكل تيار جارف يصطاد الخصوصيات السوسيوثقافية اصطيادا وينخر جسم الهوية نخرا، حيث أصبح المهندسون المعماريون يفكرون يرسمون ثم يبنون وفق متناقضات، وفق هندسة متطورة تدوس الهندسة التقليدية دوسا (حالة بعض البناءات في دولة الإمارات).

تواجه المدينة العتيقة على غرار القصبة تحديات مؤكدة للظاهرة الواقع "العولمة"، فهي تحمل في طياتها مقومات الشخصية العربية الإسلامية وخصوصيات وشواهد حية عمرانية ومعمارية تعكس واقع الفترات التاريخية المتعاقبة التي مرت بها. حيث على أيامنا، أصبحت الهوية العربية الإسلامية مستهدفة بما يسمى العصرنة وإقحام مناهج غربية هي غريبة ودخيلة على عادات وتقاليد مجتمعاتنا في الشكل والمضمون. إذ تتميز المدن الحديثة المعروفة بالحراك الحضري mobilité urbaine، بمبادئ العزل الاجتماعي والفضائي ونماذج ورسومات بناء لا

تتماشى وديننا وأعرافنا. هذا بالرغم من أن الحضارة الإسلامية تكتنز، لا سيما تراثها المبني في هندسته وفنه دروسا وشواهد وقواعد قيمة ولأن الهندسة المعمارية الإسلامية عرفت كيف تكون محلية في إطارها وعالمية في إشعاعها[22]. وعليه فإن قنوات العولمة التي نستورد من خلالها زخما من المعلومات، والبيانات والأخبار من كل الأمصار وفي لمح الأبصار يمكن، في تقديرنا، أن تكون ذات القنوات – غير المكلفة– والتي نصدر عبرها عاداتنا، وتقاليدنا وأفكارنا ومن ثم ستجد المدينة الإسلامية نفسها مواكبة بل في مأمن من الاستسلام لسيادة la suprématie العولمة وتقليد المغلوب للغالب.

2-3-5 المصالحة la conciliation بين التراث المعماري والمعاصرة:

يعيش الإنسان في تفاعل دؤوب مع محيطه، إذ يتأثر به ويؤثر فيه. فالمدينة العتيقة تتوفر على عناصر عمرانية استطاعت أن تمنح الإنسان بمختلف شرائحه، رغم النقائص التقنية التي تنتابها، راحة نفسية معتبرة وتوثق العلاقة الوجدانية بينه وبين الفراغ الخاص والعام فتقوي لديه قيمة ونخوة الانتماء. حقيقة أن التكنولوجية الحديثة هي ثراء كبير لا يمكن الإنقاص منه أو إنكاره، وضع تحت تصرف المهندس المعماري المعاصر، إلا أن التقنيات الحديثة يجب استغلالها أيضا في إنجاز بناءات إسلامية عربية الهوية متأصلة والتي تعكس بحق الحياة والحاجات اليومية للمواطن العربي، دون اللجوء إلى إعادة إنتاج المعمار الغربي الذي لا يمت لأعرافنا ولا عاداتنا بصلة، بهدف استنساخ الأنماط الأخرى تحت مظلة المعاصرة وسلخ مستعملي الفضاءات من جذورهم العربية الإسلامية "أبا عن جد" من حيث القلب والقالب والشكل واللب.

إن مهمة المصالحة بين الأصالة والمعاصرة، بين التكنولوجية الحديثة والتراث المعماري الإسلامي القديم وإن كانت صعبة المنال، فليست بالأمر المحال، إذ يتعين استغلال الثروات المعمارية المتاحة أيما استغلال والتخلي عن كل تقليد ضال. إنه أيضا، من واجب المختصين والمتدخلين على المجال:

- دراسة وتحليل ومحاولة استغلال إيجابيات التراث المعماري الإسلامي، لأن مجرد الذكر والتغني بنجاحات الأسلاف لا يجدي نفعا ولا يعطي دفعا.
- إن التطور والنجاح لا يتحققان إلا عبر التعرف والاعتراف ومن خلال تقدير الأصول.
- ضرورة المحافظة أولا ثم استغلال النقاط الإيجابية في التراث المعماري الإسلامي ورفع النقائص التي تشوبه ودرء الأخطار التي تتربص به جراء الإهمال والنكران. وهي من مهام الجماعات الإقليمية المبينة في قانون البلدية لا سيما المواد 116، و119 و122 منه[23]، وكذا في إطار برنامج تدخل متكامل منسق ومدعم معنويا، وتقنيا وماليا مع مصالح الولاية وفق ما جاء في المادة 59 و82 من قانون الولاية [24].
- تأهيل وتطوير قدرات المهندس المعماري مع ضرورة التفريق بين الشكل، والطريقة والمنهجية، والشكل والمضمون، والماضي والحاضر، والغث والسمين، والمفيد وغير المفيد. عند هذه فقط وغيرها يكون التراث المعماري مصدر إلمام ومنبع إلهام، ثروة قد تسبق ثورة ومبعث تنبيه وتوجيه للمهندس المعماري المسلم.

3-3-5 آليات المحافظة على التراث العمراني والمعماري الإسلامي:

سنت الدول الإسلامية العديد من النصوص التشريعية كآليات لتثمين التراث المعماري قصد التعريف به، وترتيبه والحفاظ على مكوناته، ففي الجزائر مثلا، صدر القانون رقم 98-04 المتعلق بحماية التراث الوطني الذي يدعو في مواده 7، و22 و41 إلى جرد وترتيب الأملاك الثقافية، ومنع وضع لافتات إشهارية بالمعالم التاريخية من جهة، وإلى إنشاء قطاعات محمية secteurs sauvegardés تخص المجمعات العقارية الحضرية ذات الطابع

السكني(القصبات، والمدن العتيقة والقصور) والتي بتجانسها، وتفردها التاريخي وجمالها وعناصرها العمرانية والمعمارية تملي ضرورة إعادة الاعتبار لها sa réhabilitation وترميمها[25] sa restauration.

هذا ويمكن في إطار منظم الاتجاهات ومتعدد الاختصاصات وضع آليات للمحافظة على الموروث العمراني الإسلامي قصد " فرملة' بل منع تدهورها المستمر نحصرها في النقاط الآتية:

- وضع عمل مشترك بين رغبات المواطنين والمسئولين المحليين والجمعيات النشطة في الحقل الثقافي الإسلامي ومحاولة دراسة مستقبل المدينة كمركز رئيسي، ودراسة كيفية المحافظة على أصالة المدينة العتيقة مع الإبقاء على أدائها الوظائف المختلفة مع احترام ظروف الحياة وذلك في إطار استراتيجية محلية.
- إعادة الاعتبار للتراث المبني ومطابقته للمعايير التقنية المطلوبة.
- إجراء إعادة هيكلة داخل السكن (إعادة توزيع الغرف) وفق احتياجات وعادات العائلة المسلمة.
- تهديم البناءات التي يثبت اهتراؤها – بعد إخضاعها لخبرة– من قبل أهل الاختصاص وتعويضها بسكنات جديدة ذات طراز إسلامي مدروس.
- بناء سكنات ومرافق عمومية تعمل على توطيد العلاقات الاجتماعية فيما بين أفراد المجتمع على الأرضيات والجيوب الفارغة.
- الصيانة الدورية للأغطية وتبديل القرميد القديم.
- إصلاح القنوات والتسربات التي تسبب صعود الماء من طرف عارفين بالميدان؛
- التخفيف من وطأة الضغط على السكنات وإتباعها بترميمات مدروسة من طرف مختصين مؤهلين[26].

4-3-5 كيف يمكن تأصيل التراث المادي الإسلامي؟

إن العالم الإسلامي اليوم أمام تحد يجبره على التفكير مليا والتدبير جديا للبحث في الطرق التي تمكنه من التملص من ضروب التبعية الغربية في مجال العمران حفاظا على شخصيته وخصوصياته من ناحية والاستثمار في معماره من أجل تفعيله وتأصيله درءا للاندماج والذوبان وذلك في إطار حوار شامل بين الحضارات فعلى المهندس المعماري:

- التحكم في الكم الهائل من صبيب معلومات العولمة وقولبتها وتكييفها والاغتراف من نبع الخبرات المحلية.
- الاحتفاظ بحق رفض سلطوية الهيمنة الغربية تحت عنوان العصرنة والحذر من القول بأن ناطحات السحاب grattes ciel أو أن الدراسة الجديدة (الأنترلاس) ذي البناءات الأفقية (النائمة) والمتراصة وإبهارها هي أحسن وسيلة للتعبير عن التقدم والعصرنة.
- يجب أن تكون لدينا ثقافة مشتركة تشمل الثقافات الإسلامية المحلية la culture islamique locale من خلال التعرف على كنهها والنهل والاغتراف من نبعها وكذا التعرف والاعتراف بتعدد العادات والثقافات في الجزائر.
- المحافظة تكون أيضا، بوفرة النصوص القانونية المسايرة والمتكيفة مع التطورات والخصوصيات ثم بتدخل جماعي تتعدد فيه التخصصات[27] team work.

خاتمـــة

الهندسة المعمارية هي أم الفنون فهي تبرز أشكال القيم والمهارات وتقاسم الحياة كما تعكس الظروف التاريخية، والاقتصادية، والاجتماعية والدينية وهي من أهم مكونات البيئة الطبيعية والحضرية. وعليه ومن خلال

هذا الطرح، تعد الورقة البحثية دعوة مباشرة وصريحة للمتدخلين في الفضاء les faiseurs d'espace لا لإيلاء الاهتمام فحسب بل للبحث والوقوف على ثروة، وصحة وشرعية التراث المادي le patrimoine matériel، المعماري والعمراني الإسلامي حيث بينت الدراسة أعلاه أن المجتمع الاسلامي كان يبذل قصارى جهوده في تخطيط فضاءاته العمرانية ومدنه ويعتمد في ذلك على قواعد محددة ومدروسة بدءا من حسن اختيار موضع تشييد المدينة إلى أسس تسييرها وتدبيرها إلى تطويرها، لكنه لم يقتصر على تقنين الجانب العمراني فقط إنما اهتم بالمنازل الخاصة كذلك حيث إن طرق البناء والتنظيم الداخلي وكل جوانب هذا المجال عرفت تطورا عملاقا بالنسبة لما كانت عليه في أولى المباني الإسلامية بيثرب (مدينة النبي) وما كانت عليه الحضارات الأخرى في نفس الحقبة الزمنية.

إن التراث الإسلامي المادي مرتبط أيما ارتباط بأذهان ووجدان المسلمين قاطبة، ولا أدل على ذلك من الشواهد العودة الواضحة إلى بعض الطرق والأساليب التقليدية في إطار ما يسمى بالتنمية المستدامة للتقليص من استهلاك الطاقة خاصة غير المتجددة l'énergie non renouvelable من جانب، والمكلفة من جانب آخر. من أجل ذلك يستحب بل يستوجب نقله من الأجيال السابقة الى الأجيال اللاحقة. بالإضافة إلى استغلال مزايا التكنولوجية المعاصرة، والتكامل والمصالحة مع البيئة عامة والبيئة الحضرية environnement urbain خاصة وتحقيق أسباب الرفاه والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والبيئي لمستعمل الفضاء الداخلي والخارجي على حد سواء، وذلك باستعمال مواد أولية محلية ذات أسعار معقولة ومقبولة. الفضاء المنشأ في إطار تلبية حاجاته المتعددة والمتزايدة طبقا لمبادئ وأحكام الشرع الخاصة والعامة لخدمة ضرورة تنمية المجتمع الإسلامي وربطه بماضيه الزاهر بالأمجاد والزاخر بالإنجازات والمهارات وصنع حاضره والأيلولة بالأمة الى مستقبل واعد وغد راغد.

التوصيات:

وعلى ضوء ما سبق ذكره، نخلص إلى جملة من التوصيات نوجزها فيما يأتي :

– حماية التراث المعماري الإسلامي من التخريب والتغريب اللذين يطالانه جراء عوامل بشرية وأخرى طبيعية والذي يؤدي بالضرورة لفقدان جزء من الذاكرة الجماعية والإرث الثقافي الحضاري الإسلامي: منها خسائر لا تعوض في الأرواح أو خسارة للشواهد والذاكرة لا تعوض إلا بالتلقين والتدوين إضافة إلى الخسائر المادية المعتبرة .

– ترميم وصيانة وإعادة الهيكلة للمدن والأنسجة العتيقة في ضوء أنظمة البناء الحديثة تنفيذا لتوصيات المجلس الوزاري المغاربي للإسكان والعمران المنعقد في دورته العاشرة بالجزائر من 17 إلى 19 يونيو 2008.

– إثراء الفكر في إطار التعامل الأخوي، والتلاقح العلمي وحوار الحضارات لإعطاء المدينة الإسلامية القديمة تناسقا وتوازنا مكيفا في كنف السلم والسلام؛ وله علاقة تعايش وتكامل مع وظائف المدينة العصرية، إلى جانب الدعوة إلى تعميق التفكير ووضع استراتيجية تنسيق وتعاون بين هيئات مؤسسات الترميم العمومية والخاصة وكذا التشريعات والآليات التنفيذية للعمليات.

– المدينة العربية الإسلامية ليس لها أهمية إذا كان مستعملها الحالي لا يعترف بها ولا يعمل على وجودها وإعادة إحيائها روحيا بفكره وإحساسه، هي عملية تتوقف بالأساس على عنصر التوعية والتحسيس الفعلي والمستمر عبر الزمن بإقحام الجمعيات الدينية والمساجد والمؤسسات التربوية وكذا إشراك المواطن كحلقة رئيسية للاستشارة

والحوار الأفقي البناء (تكوين حس ووعي جماعيين بالماضي وعزة الانتماء ونصرة الدين ونشر مآثره)، في مشوار مرحلي وطويل مآله التأصيل، يقوده عصارة وصفوة المجتمع من ذوي العلم والاختصاص المدججين بالدراسات الأكاديمية ونتائج البحوث العلمية الميدانية (حول جودة الحياة الحضرية في المدن الإسلامية، آفاقها، درجة الرضا بالخدمة الحضرية، درجة تعلق الفرد بماضيه).

– بهدف التواصل الآني والبعدي وربط أواصر التواصل بين استحضار الماضي، صنع الحاضر لاستشراف وبناء المستقبل الواعد إثباتا ونبذا لسياسة إلغاء الآخر، دون إهمال عامل الزمن لتفادي العمل الترقيعي المناسباتي والأخطاء المرتكبة، حيث إنه لا يجب، بأي حال من الأحوال، أن نقيم ما أفرز وما أنجز فيما سبق ونحن نضع نظارات من إنتاج الوقت الراهن.

-الهوامش:

1– محمد محفل، 1991، تاريخ العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية 02–91، رقم النشر 2.04.3458، بن عكنون، الجزائر، ص 151.

2- عبدالرحمن بن خلدون، 1978، المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، لبنان.

3- محمد صدقي (1996)، تعدد الثقافات ثروة للبلاد، أخبار غرداية، عدد 032، مجلة تصدرها ولاية غرداية، ص ص 09-13.

4- محمد صدقي. المرجع نفسه، ص 15.

5- J.PELLEIER., Ch. DELFANTE, 2000. Villes et Urbanisme dans le monde, Edit, Armand Colin/HER, Paris. 99 p.

6- J.PELLEIER, Ch. DELFANTE. Op.cit. p 121.

7- Denis GRANDET, 1992. Architecture et Urbanisme Islamique, Office des Publications Universitaires (OPU), Codification 2.04.1785, Ben Aknoun-Alger, Réimpression, 109 p.

8- حميد اوقوادفال(1993)، المدينة والثقافة، العمران المغاربي، مجلة الهندسة العمرانية والتعمير، عدد 2،الجزائر، شهر اكتوبر، ص ص 72–74.

9- خليف مصطفى غرايبة (2015)، منهجيّة الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الإسلامية (ابن أبي الربيع أنموذجا)، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، العدد1، المجلّد 8. مقال اطلع عليه يوم 2017/09/10 على الموقع الإلكتروني: https://www.bau.edu.jo/UserPortal/UserProfile/PostsAttach/75796_1342_1.pdf

10- محمد صدقي، المرجع سبق ذكره، ص 16.

11- فوزي فار الذهاب ترجم من الفرنسية خ. قرنان(1990، تصنيف تقنيات التبريد الطبيعية في الهندسة المعمارية المحلية ببلدان الشرق الأوسط، البناء مجلة قطاع البناء والأشغال العمومية، العدد 35، حسين داي الجزائر، ص ص 3–10.

12- محمد صدقي، المرجع سبق ذكره، ص 15.

13- Denis GRANDET. Opcit, p 55.

14- Hocine Si Fodil (1995), Architecture en pays d'islam, Les cahiers de l'EPAU, Recherche et projets, Revue semestrielle d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, N°4, mois d'octobre, pp 14-16.

15- Ministère de l'Habitat, Eléments de Composition Urbaine, 1994. Documents d'Urbanisme, ENAG/ Editions. Alger, 89 p.

16- Amine LOTFI (2012), D'Est en Ouest et du Nord au Sud de belles pages de notre patrimoine, AMENHIS (Aménagement Et Histoire), N° 37, Alger, mois de Mai/juin, pp 92-94.

17- J.PELLEIER., Ch. DELFANTE. Op.cit. pp. 122-123.

18- محمد محفل، المرجع سبق ذكره، ص 155

19- Amar DHINA, 1986, Cités musulmanes d'orient et d'occident, Entreprise Nationale du Livre, N° Edit 1351/83, Boulvard Ziroud Youcef-Alger, 141 p.

20- Amar DHINA. Op.cit, p75.

21- Ministère de l'Habitat, Op.cit., p61.

22- الصادق قرفية، خصوصية المدينة العربية في ظل العولمة، دراسة حالة: المدينة القديمة بعنابة، ملخصات مداخلات الملتقى الدولي حول صناعة المدينة، جامعة ام البواقي، 2009، ص 91.

23- القانون رقم 90-08 المؤرخ في 07 أفريل 1990 المتعلق بالبلدية.

24- القانون رقم 90-09 المؤرخ في 07 أفريل 1990 المتعلق بالولاية.

25- القانون رقم 98-04 المؤرخ في 15 جوان 1998 والمتعلق بحماية التراث الوطني.

26- كريمة مسعودي(2011)، الملتقى الدولي حول البناء القديم بسكيكدة، المجلس، مجلة دورية للمجلس الشعبي، العدد11، سكيكدة، شهر جوان، ص ص 10-12.

27- BOUANANE Kentouche Nassira, 2008. Le patrimoine et sa place dans les politiques urbaines algérienne, Magister, Département d'architecture et d'urbanisme, Université de Constantine. 279 p.

- المصادر والمراجع:

الكتب:

- عبد الرحمن بن خلدون (1406م)، 1978، المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، لبنان.
- محمد محفل،1991، تاريخ العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية 02-91، رقم النشر 2.04.3458، بن عكنون، الجزائر.
- J.PELLEIER, Ch. DELFANTE, 2000. Villes et Urbanisme dans le monde, Edit, Armand Colin/HER, Paris
- Denis GRANDET, 1992 .Architecture et Urbanisme Islamique, Office des Publications Universitaires (OPU), Codification 2.04.1785, Ben Aknoun -Alger,
- Ministère de l'Habitat, Eléments de Composition Urbaine, 1994. Documents d'Urbanisme, ENAG/ Editions, Alger.
- Amar DHINA, 1986, Cités musulmanes d'orient et d'occident, Entreprise Nationale du Livre, N° Edit 1351/83, Boulvard Ziroud Youcef- Alger.

المجلات:

- محمد صدقي، تعدد الثقافات ثروة للبلاد، أخبار غرداية، عدد 032، مجلة تصدرها ولاية غرداية، ديسمبر 1996,
- حميد اوقوادفال، المدينة والثقافة العمران المغاربي، مجلة الهندسة العمرانية والتعمير، الجزائر، عدد 2، اكتوبر 1993.
- فوزي فار الذهاب ترجم من الفرنسية خ. قرنان، تصنيف تقنيات التبريد الطبيعية في الهندسة المعمارية المحلية ببلدان الشرق الأوسط، البناء مجلة قطاع البناء والأشغال العمومية، المركز الوطني لتنشيط المؤسسات ومعالجة المعلومات الخاصة بقطاع البناء، حسين داي الجزائر، العدد35، 1990.
- Hocine Si Fodil, Architecture en pays d'islam, Les cahiers de l'EPAU, Recherche et projets, Revue semestrielle d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, n°4, octobre 1995.
- Amine LOTFI, D'Est en Ouest et du Nord au Sud de belles pages de notre patrimoine, Revue AMENHIS (Aménagement et Histoire), Alger, N° 37 Mai/juin 2012.
- كريمة مسعودي، الملتقى الدولي حول البناء القديم بسكيكدة، المجلس، مجلة دورية للمجلس الشعبي الولائي، سكيكدة، العدد11، جوان 2011.

موقع الأنترنت:

- خليف مصطفى غرايبة،2015 ، منهجيّة الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الإسلامية (ابن أبي الربيع أنموذجا)، على الموقع: https://www.bau.edu.jo/UserPortal/UserProfile/PostsAttach/75796_1342_1.pdf